صلاح الدين البيطار

المسيحيون والمسلمون

لا يمكن ادراك اصل الازمة اللبنانية ، في واقعها العميق ، الا انطلاقا من مقاربة قومية عربية يبدو لي مهما أن استخلص معالمها الجوهرية ، عشية ٢٣ أيلول :

● استقلال لبنان وسيادته اللذان اقرهما التوافق عام ١٩٤٣ بين الطرفين ، المسلم والمسيحي ، المدعوين للتعايش في هذا البلد . ان لبنان ، في واقعه التاريخي والجغرافي ، جزء لا يتجزأ من الوطن العربي .

● القضية الفلسطينية هي أصل أزمة الشرق الاوسط . فالجميع ، بما في ذلك الدولتان الكبريان ، يقرون ذلك . والبعد العربي في هذه المشكلة هو ، من جهة أخرى ، بعد جوهري . واخيرا ، فان على لبنان ان يتحمل ـ طبعا في اطار احترام سيادته واستقلاله ـ نصيبه من المسؤولية في النضال المشترك ضد العدوان الاسرائيلي . وقد استطاع لبنان ، ما ظلت هذه الحقائق مقبولة على هذا النحو ، ان يحافظ على استقراره وازدهاره . ولكن الرجوع الى هذه الحقائق قد اصبح اكثر فأكثر افلاطونيا وشكليا ، مما ادى الى تدهور للوضع مستمر وخطير .

واسباب هذا التدهور ترجع في وقت واحد الى خارج البلد والى داخله . فلبنان ما كف يوما عن ان يكون موضع مطامع ملتهبة ، وقد شكل ، منذ عام ١٨٦٠ ، أرضا خصبة للمؤامرات التي كانت تهدف الى اذكاء نار التناقضات الطائفية . وما يحدث اليوم في لبنان ، انما هو تكرار لما حصل عام ١٩٥٨ ، ولكن على درجة ارفع من الشراسة والفظاعة والنفاق .

ومعلوم ان ثورة قد حصلت في تلك الفترة في لبنان ضد سلطة رئيس العهد كميل شمعون . ومن حسن الحظ ان الجيش اللبناني استطاع آنذاك ان يشكل الملاذ المؤاتي والاخير . وقد كان على رأسه قائد وطني هو الجنرال شهاب ، المسيحي الماروني ، واللبناني العربي الذي نجح ، وهو يوفر على جيشه الانحياز الى احد الفريقين ، ان يكسب احترام جميع الطوائف اللبنانية . وحين انتخب رئيسا للجمهورية ، تصرف كرجل سياسي واقعي ، ولم يتردد في ان يمد يده الى الرئيس عبدالناصر الذي كان يعرف تأثيره على الجموع الشعبية اللبنانية . وفي ذلك الاطار ، استطاع لبنان ان يسترد وحدته واستقراره وازدهاره .

ولكن هذه الانتفاضة لم تدم طويلا مع الاسف ، ونشأت التيارات المرتكسة التي أخذت تتأكل الانسجام الوطني والتي يشكل وجودها السبب الثاني ـ السبب الداخلي ـ للكوارث اللبنانية . وقد تمكنت هذه التيارات من التغلب ، وبلغت انتفاضات القوى المرتكسة ذروتها غداة حرب حزيران ١٩٦٧

ووجدت التعددية اللبنانية نفسها وهي مهددة شيئا فشيئا بتصدعات مقلقة لم يتأخر الصهاينة في استغلالها ، وجراهم على ذلك انتصارهم .. الم يكن بن غوريون يحلم ، منذ عام ١٩٥٤ ، في رسالة أصبحت اليوم معروفة كان قد وجهها الى موسى شاريت (رئيس الوزارة آنذاك) ، بخلق دولة مارونية مزروعة على خاصرة لبنان ؟

ومن يبذر وينمي ريح الايديولوجيات الطائفية ، فانما يحصد عاصفة الحرب الاهلية . على ان الساسة اللبنانيين ، بالرغم من هذا التفاقم المقلق للاخطار الطائفية ، ظلوا منصرفين الى مبارزاتهم السياسية البارعة والى ترك طفيليات الاتجارية ومحاباة الاقارب والاستزلام تكتسح دروب السلطة وممراتها . وعلى ممر الاشهر وانتشار التواطؤات البرلمانية والوزارية ، اعتاد فريق على اعتبار نفسه مارونيا قبل ان يكون لبنانيا مسيحيا ، واعتاد فريق آخر على اعتبار نفسه سنيا او شيعيا قبل ان يوكد نفسه لبنانيا مسلما . وهكذا اخذت حبكة النسيج الوطني اللبناني ، التي كانت قد توثقت واشتدت في عهد الانتفاضة الشهابية ، تضعف وتسترخي على نحو خطير .

وانطلاقا من هذه الوقائع ، يحسن تحليل الآفات الاخرى التي ضربت هذا البلد الذي يحتضر اليوم .

ينبغي التحدث اولا عن التدخل غير المحتمل للانظمة العربية التي منهجت تقليدا قديما قام على جعل لبنان ، خلال الفترة التي سبقت الحرب الاهلية ، الارض المفضلة لصراعاتها . والحرب الباردة المقنعة التي اقاموها أخيرا اعتمدت معالاسف على القوى اللبنانية . فمولوا الاحزاب والصحف ، وحولوا المسرح السياسي الى ادغال لحفلات الصيد المحروسة ولمناطق النفوذ ، وافادوا من قبل الدولة اللبنانية من وداعة وتسامح بلغ من شأنهما ان معظم التشكيلات المنتسبة الى ما اتفق

السياسي كلّ حيويته على أعراض التطرف الماروني . تنسجم كثيرا مع هذا التدخل . وقد اضفى الجو السياسي كل حيويته على اعراض التطرف الماروني .

ولا بد لمعالجة هذه المسألة التي تشكل العامل الاساسي للصراع اللبناني من اقامة تمييز واضح جدا بين المسيحيين الموارنة وبين اولئك الذين ينبغي ان نسميهم « الموارنة المسيحيين » لان ذلك اكثر انطباقا على الواقع .

ليس ثمة من ينكر اهمية الدور الذي لعبه المسيحيون الموارنة في المجتمع اللبناني . وذلك راجع الى الظروف التاريخية . واقتناعا مني بهذا الواقع ، وحرصا مني على الا اظلم المستقبل ، لابد من التنبه الى بعض اقوال البطرك الماروني خريش ورئيس حزب الكتائب ، بيار الجميل . والواقع انهما يشيران الى حالة «الذهان» التي استولت على الطائفة المارونية ، ولكنهما يعترفان كذلك بتفاقم التفاوت الاجتماعي والتصرفات التمييزية التي ادت في قلب الطوائف الاسلامية، الى المرارة والحقد. ويمكن القول ان الكتائب لا تمثل التطرف ولا الانعزالية المارونية .

وبالمقابل ، فان « الموارنة المسيحيين » يستمدون نظرتهم من منابع اكثر ريبة وشبهة . انهم يعتمدون ايديولوجية طائفية مارونية ، وقد غذوا شكلا من الوطنية المارونية الكارهة للاجانب والمناهضة للعروبة مناهضة شرسة . فهم لا يريدون فحسب طرح مشكلة الوجود الفلسطيني ، بل يعملون كذلك على « نزع صفة العروبة » عن لبنان . والمسؤولية الاساسية للتصعيد الدموي انما تعزى اليهم الى حد بعيد . ومما يشهد ، بشكل مأساوي ، على تعصبهم الوان المذابح والابادة التي رافقت معارك تل الزعتر وسواها . وهدفهم المعلن هو حصر لبنان في خيار لا يمكن الدفاع عنه : اما ان يبقى لبنان موحدا في اطار صيغة انعزالية ، لا عربية ، بل حتى مناهضة للعروبة ، واما الانفجار ، والتقسيم بتأسيس « دولة مارونية » .

والاحكام المتباينة التي صدرت عن ثلاثة زعماء رئيسيين ، حول هذه النقطة ذات مغزى : كمال جنبلاط ، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ، وريمون أده ، وهو وجه هام من وجوه الطائفة المارونية ، وياسر عرفات الذي يدين ، باسم المقاومة الفلسطينية « الموارنة الذين يريدون خلق اسرائيل ثانية في قلب الامة العربية »

والحق ان المسألة المطروحة بالوجود الفلسطيني تشكل العامل الذي بلور العداوات . وهذا يتطلب بعض التوضيح . فالفلسطينيون لم يتجمعوا ، على هذا النحو الكثيف ، في لبنان ، الا بعد مجازر « ايلول الاسود » الاردني عام ١٩٧٠ . والقادة السوريون لم يكونوا راغبين بهم قط ، بل انهم اغروهم باللجوء الى لبنان . ووجودهم في لبنان الذي أملته الضرورة لا غاية له الا حاجتهم الى ارض يلوذون بها ، ومنها يستطيعون الاستمرار في التوجه الى الضمير العالمي والنضال من اجل تحرير وطنهم . وليست لديهم نية بان يبيعوا وطنهم بذهب الدنيا كله ، وليس فقط بذهب العالم العربي ، وهم يطالبون بان يعاملوا ، على الاقل ، كما عوملت الثورة الجزائرية في تونس .

ومن باطل الكلام وصفهم بأنهم « عملاء التخريب العالمي » . فالنضال الفلسطيني الذي اعترف المجتمع الدولي بشرعيته اليوم ، بعد اعوام كثيرة من العداء والصمت ، يفترض اشكالا من التنظيم الشعبي والعسكري المستقلين . والحال ان الفلسطينيين ، ازاء خصومهم الذين يرفضون مبدأ حضورهم المسلح بالذات في لبنان ، لم يكسبوا تأييدا حقيقيا الا من جانب القوى التقدمية وحدها . على ان زعماءهم لا ينون يؤكدون ان وجودهم في لبنان لا يمكن ان يعتبر الا موقتا . ولقاءاتهم مع جميع ممثلي الطائفية المارونية كانت ممحورة دائما على هذه الفكرة الجوهرية . واخيرا ، ومن غير ان نتجاهل وقوع أخطاء يمكن ان يكون قد ارتكبها ، بين حين وحين ، بعض فصائل المقاومة او زعمائها ، كيف لا تؤخذ بعين الاعتبار الحالة النفسية والروحية للفلسطينيين الذين يراودهم شبح محاولة جديدة للتصفية ، كما كان الحال في الاردن ؟

ان الحرب الاهلية ، بين وقف غير محترم لاطلاق النار ، وهدنة مخروقة ، تتفاقم يوما فيوما ، زارعة الموت والخراب ، معمقة الفجوة بين الطوائف اللبنانية ، ومضاعفة مخاطر التهاب عام في المنطقة كلها ، مع مرور الاسابيع .

فأي حل اذن ، يمكن ان يتوقع او يؤمل ؟

ان الزمن يلعب ، كما يظهر ، لصالح « المتطرفين » في قلب الطائفة المارونية . وكل حادث جديد يقوي سيطرتهم على شركائهم الاخرين . وان بعض المسيحيين الموارنة الذين جرّوا في هذه المغامرة ، يوشكون في هذه الظروف ، ان يصبحوا ، وعلى نحو لا يمكن علاجه ، أسرى او رهائن الجناح الانعزالي المتطرف الذي يصدم سكره المرعب اليوم اكثر الاوساط السياسية الاوروبية اعتدالا . وانا مع ذلك مقتنع بأن معظم المسيحيين الموارنة سيرفضون ان ينساقوا حتى النهاية في الدرب الخطر الذي ما فتيء « المتطرفون » يتشبثون في سلوكه .

وان تدخل الجيش السوري لا يمكن في اية حال ، ان يحل الازمة اللبنانية ، وانما يمكن ان تسهم حملة سلام يقودها عمل مشترك لدول الجامعة العربية في اعادة الوئام الى لبنان منهك محتضر ، ولكنه مصمم على ان يعمل على خلق مجتمع عربي ديموقراطي علماني في ظل احترام استقلاله والحفاظ على وحدة ارضه وسيادته . وهذا يفترض ، بالطبع ، أن تحدد ، باتفاق مشترك ، شروط الوجود الفلسطيني الذي لا يمكن

ان يعاد من جديد طرح ميدئه على النقاش ، في اي حال من الأحوال .

ان مختلف اشكال « اللامركزة » ـ وهو تلميح لا يمكن ان ينخدع الناس بنوايا اصحابه ـ او « الاتحاد الفدرالي » تحت ظل الدبابات او المصفحات ، لا تستطيع الاسهام في مصالحة اللبنانيين فيما بينهم . بل الامر على عكس ذلك تماما .

ان النظام السوري ، بعد هجومه العسكري ، ووحشية غاراته على الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية وعلى المقاومة الفلسطينية ، وصرامة حصاره المفروض على المدن وعلى المعسكرات التي تتعرض لقصف لا ينقطع ـ ان هذا النظام المتورط في المستنقع اللبناني لا يمكن بعد الان ان يخدع أحدا . والحق ان سادة السلطة في دمشق لا يمكن أن يتجاهلوا ان كل عمل يهدف الى التخلص من الفلسطينيين ليس هو عملا اجراميا فقط ، وانما هو كذلك مرصود للاخفاق ، مهما طال الزمن .

يبقى عدد من التساؤلات المشروعة والمعذبة : كيف استطاعت سوريا ، قلب العروبة النابض ، أن تبلغ هذا المبلغ من الجحود ؟ كيف سيقت ، وهي الوحدوية في اعمق اعماقها ، الى قبول التحالف مع قوى انعزالية الى حدود العدوانية ؟ وكيف استطاع النظام الحاكم في دمشق ان يضلل البلاد في طريق معاكس الى هذا الحد لتقاليده ورسالته ؟

ان الجواب يكمن في طبيعة السلطة نفسها في سوريا . سلطة معزولة ، مقطوعة عن الشعب ، خانقة لكل حياة سياسية ديمقراطية وقومية على نحو صحيح . ولئن شوهت سوريا هذا التشويه المثل التي كانت تلتزم بها وخانت رسالتها القومية العربية ، فانما ينبغي التماس اسباب ذلك في أجهزة السلطة الحاكمة بلا منازع في دمشق .

ان اي نظام عربي ـ وخاصة النظام السوري ـ لا يستطيع ، بغير المساندة الشعبية التي لا غنى عنها ، في ساعة الاختيارات الحاسمة المتعلقة بالنزاع الذي يتأكل « المشرق العربي » منذ ثمان وعشرين سنة ـ لا يستطيع الا ان يختار « المقامرة » والهرب الى امام في المشاريع والتحالفات الاكثر جنونا وحماقة .

وانسحاب الجيش السوري من لبنان يمكن ان يكون اليوم مقدمة الحل للمأساة اللبنانية الفلسطينية . وان شعبنا والقضية الفلسطينية وقضايا الحرية والعروبة ، هي كلها ستحقق الكسب من ذلك .

جريدة « لوموند » الفرنسية
٢١ ايلول ١٩٧٦
ترجمة « الآداب »

حسب الشيخ جعفر

وطن اسمه بيروت

لا اهجرها ، المهجورة في اسمال الصيف بلا بحر أو أصباغ ، لا أهجرها ، الحسناء النازفة المتقيحة الثكلى .. بل يهجرها المتأمرك تحت عباءته ، المصطك الركبة لا من هلع في جبة ابن نصير ، يهجرها المصطاف المنتفخ الجنبين ، اقبل جبهتها واقول :

صباح الارصفة المحروثة

اطفالا شهداء ، صباح القنبلة المفتضة في اعراس النبعة والميناء ، صباح عيون الرضع صارخة تحت الانقاض ، صباح الوردة تطلع فوق رماد مخيم جسر الباشا ،

نازفة في عري

الروح الصافية العربية ،

نازفة في عري

الغدر الفاقع ،

آخر ما قالت نجد في غار اخضر ،

آخر ما قالت يافا :

طفل مذبوح يخرج من بيروت يقول لكم : كونوا حطبا تبقوا .. !

طفل مذبوح يخرج من بيروت :

صباح الوردة

تطلع فوق رماد مخيم جسر الباشا ، نازفة في وجبة افطار الاشباح ، تلطخ ياقات السهر البيضاء ، تلطخ اربطة العنق البيضاء ، وتقطر فوق سجائرهم بيروت اكف تقطع عند الرسغ وتلقى في المتوسط ، اعين أطفال لا تبصر الا حملقة الام المشنوقة ، ساحات لا تسمع غير خطى الموتى ، بيروت النازفة المتورمة ، البدوية حتى العظم تقول :

صباح الخير ..

لعيني طفل يصحو في تل الزعتر .

« الثورة » البغدادية
٣ آب ١٩٧٦